

من الآثار القبيحة للمعاصي (٢٤)

الحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه أما بعد،،،

الحذر من النزول الخطير:

ولكن يعرض هاهنا للنفوس غلط عظيم، وهو أن العبد قد ينزل نزولاً بعيداً أبعد مما بين المشرق والمغرب، وأبعد مما بين السماء والأرض، ولا يفي صعوده ألف درجة بهذا النزول الواحد، كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " إن العبد ليتكلم بالكلمة الواحدة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب ". فأي صعود يوازن هذه النزلة؟ والنزول أمر لازم للإنسان، ولكن من الناس من يكون نزوله إلى غفلة، فهذا متى استيقظ من غفلة عاد إلى درجته، أو إلى أرفع منها بحسب يقظته، ومنهم من يكون نزوله إلى مباح لا ينوي به الاستعانة على الطاعة، فهذا إذا رجع إلى الطاعة فقد يعود إلى درجته، وقد لا يصل إليها، وقد يرتفع عنها، فإنه قد يعود أعلى همة مما كان، وقد يكون أضعف همة، وقد تعود همته كما كانت، ومنهم من يكون نزوله إلى معصية، إما صغيرة أو كبيرة فهذا يحتاج في عوده إلى درجته إلى توبة نصوح، وإنابة صادقة.

الارتفاع بعد النزول:

اختلف الناس فيمن نزل إلى معصية صغيرة أو كبيرة هل يعود إلى درجته التي كان فيها بعد التوبة من المعصية بناءً على أن التوبة تمحو أثر الذنب، وتجعل وجوده كعدمه، فكأنه لم يكن، أو لا يعود بناءً على أن تأثير التوبة إنما يكون في إسقاط العقوبة، وأما الدرجة التي فاتته فإنه لا يصل إليها. قالوا: وتقرير ذلك أنه كان مستعداً باشتغاله بالطاعة في الزمن الذي عصى فيه لصعود آخر، وارتفاعه بحمله أعماله السابقة بمنزلة كسب الرجل كل يوم بجملة ماله الذي يملكه، وكلما تضاعف الريح فقد راح عليه في زمن المعصية ارتفاع وريح تحمله أعماله، فإذا استأنف العمل استأنف صعوداً من نزول، وكان قبل ذلك صاعداً من أسفل إلى أعلى وبينهما بون عظيم، قالوا: ومثل ذلك مثل رجلين يرتقيان في سلمين لا نهاية لهما، وهما سواء، فنزل أحدهما إلى أسفل، ولو درجة واحدة، ثم استأنف الصعود، فإن الذي لم ينزل يعلو عليه ولا بد.

(يتبع بالعدد القادم.. التوبة تحدد العودة)

من كتاب الجواب الكافي